الفكر المتراجع والرغبة القسرية بالتدمير الذاتى
فى داخل الجناح الإحجامى للمدرسة العربية فى التحليل النفسى

د. على زيعور

١ - مصطفى صفوان ، اقتدينا به وأحببناه ، الجانب الإيجابى فى التجربة :

أنا، لقد أعربت عن رغبتى بأن أنجح ، نجاحاً ناله مصطفى صفوان، فى «ذكريات الفكر الجامعى العربى». وأشاد برغبتى هذه الزميل محمد عبدالرحمن مرحباً فى مقدمته لكتابى «ميادين العقل العملى فى الفلسفة الإسلامية الموسَّعة»(ص٧) . ولا أظن أن حارثاً ، فى المدرسة العربية فى علم النفس، لم يتنبه إلى نجاحات حفنة من الزملاء العرب العاملين فى «الدار العالمية للعلم والفكر»[١] ؛ فالمتغلب على مشاعر الحساسية، فيما بين أصحاب الكار أو الاختصاص الواحد، يسعد بإنجازات منيعة حققها مصطفى ومصطفى (صفوان ثم زيور) ، المليجى، أ. فائق، القوصى؛ وغيرهم من الذين قد يصح تسميتهم : جماعة "ذى الوطنين أو الثقافتين ، الفكرتين أو العقلين" .

٢ - الأب المقتول ، المعاناة أو الخوف المكبوت من الصراعات التى يثيرها قتله:

وأنا، لقد تأخرتُ كثيراً عن "إخراج المكبوت" من أحكامى على تشخيصات مصطفى صفوان، وحلوله لانجراحات الوعى والسلوك فى النحن العربية؛ بل ولمساره وسيرورته فى التحليل النفسى؛ وللتعين (التماهى) فى لاكان ، أو فى الفكر الفرنسى المتأخّر أكثر من خمسين عاماً قبل أن يأخذ بالتعمشق على التحليل النفسى. . فى كلام أقصر، أنا، بلا أسف أو تأنيب ذاتى، تأخرتُ ، كثيراً، قبل أن أفجر مكبوتاتى - المترازحة رزيحه فوق رزيحة - تجاه تحليلات ثم معالجات صفوان

للصراعى والإشكالى فى نطاق "الذات العربية"، أو لإعادة صياغة الحلول الشمولانية المتناقحة (را : إعادة التعضية) للنحناوية العربية المتمأزقة، حتى للتحليل النفسى فى قوامه النظرى المحض. إن قتل مصطفى صفوان، الأب الرمزى فى مدرستنا العربية للتحليل النفسى والعلاجنفس ، يستولد مشاعر بالإثم من جهة أولى. وهو، من جهة أخرى ، يحرِّر ؛ ومن ثم يُهيّء للتطوير، أو الانزياح عن السلوكيات الإحجامية المتردية: الفائر منها والترجعى إن لم نقُل السلبى. لماذا نتمرد، هنا وفيما يلى، على الأب، على المعلّم ، على الحال العُصابى أو المنجرح وغير السوائى عند "الرئيس" صفوان؟ ماذا يتشخص ، ثم كيف نحاكِم، صفوان ممثل التيار التراجعى للعلاج بحسب التحليل النفسى عند العرب؟

٣ - وَعْيَنَة العوامل القهرية فى قتلنا الرمزى للأب التمرّد على المؤسس تحرر منه وحياة أخرى له :

هل هنا ، فى ظاهرة وأدوات تشخيص "النزعة التدميرية" اللاواعية، عند صفوان، أعراض عقدة "حسد الأخ الأكبر"؟ (. . .) ولا أظن أننا أمام عقدة "قتل المعلم" المرفوض معاً والمحبوب، الجاذب والجابذ. يضاف هنا أن صفوان يُمثل ويحين فى مدرستنا العربية الراهنة صورة منمقة، بل غير نقدية ، عن بعض أوربا المدللة العاشقة لنفسها. وبذلك فصفوان ليس هو فقط الأخ المحسود، أو المعلم المكروه ؛ بل وهو أيضاً (الغرب)(!) الذى هو داء ودواء، خصم وداعم ، ولا بدى وجلاد، إيجابى وسلبى، قاض وشاهد.

لا أقاضيه حباً بدور القاضى، أو السادى؛ فلست مصاباً بعقدة الضفدعة (عصاب النّق والنّقيق). أو عقدة الأرملة الساخطة (السخط القهرى التعميمى). واعترفت مراراً بأنى وضعت أمام الوعى قهريات أخرى قد تتحكّم بى كناقد أو محاكم؛ من نحو: عقدة حسد المعلم ، تنافر أبناء الكار الواحد، التلميذانية، عقدة الضحية الرغبة بالتمرد الأب الناجح أو الرئيس المتسلط القامع. لا شىء، إذن ، خارجاً عن السيطرة، عن الوعى والإرادة المسئولة ، وهكذا فإن قتل تفكرات صفوان

مرغوب هو إذن؛ ويؤجج فى الآن عينه شعوراً بالأسى والندامة، ورغبة بالتكفير وغسل الشعور بالأثم. وفى كلام أدمث . إن النقدانية التى تتعلم وتتجاوز، أو تمتص وتَهضم ثم تتخطى ، تكون لابدية من أجل تقدم إعادة تعضية قطاع الفكر التحليل نفسى فى بعديه النظرى والتطبيقى، المحلى والعالمى، منهجه الاستقصائى، بالتداعيات الحرة ومنهجه العلاجى.

وتطبيق أدوات التفحص والتحليل على صفوان يقود إلى تشخيص نزعة تدميرية، وانجراح هاجع ، وذكرى إحباطٍ واكتئاب أو شعورِ بالإنهاك. هذا، مع الرغبة بالانتقام أو التشفّى.

٤ - النزعة القسرية إلى التدمير الذاتى عند صفوان والتيار التراجعى :

هنا "رغبة" من نوع عقاب الذات تؤدى بالصابر إلى أن يعتمد الوسائل المباشرة وغير المباشرة، وعلى الصعيدَيْن الواعى واللاواعى، من أجل تهديم ذاته أو تحطيم انتماءاته إلى الذاكرة والوطن النحناوية. يُعيد التحليل النفسى هذه النزعة إلى غريزة العدوان. فهذه بقدر ما يصعب أمامها التوجه إلى الخارج ترتد إلى الفرد نفسه، وإذ هى تعجز عن تدمير العقبات الموضوعية والتغلب على الموانع المادية فإنها تتوجه نحو الداخل، وتعمل على تدمير الأنا، أو النحن، فكراً وماضياً ومستقبلانية، إنها حالة الطفل، أو اليأس المشتبك مع حقله والفاقد للتكيف، فالصابر هنا بدلاً من أن يحطم المثير يحطم الذات؛ وهنا عوضاً عن أن نحطّم العدو القوى نعض يدنا ، أو نضرب وجهنا والحال حال الذئب يعض الحديدة حتى يكسر أنيابه.

وقد تكون النزعة فى بعض الفكر العربى المعاصر، إلى النعى اللجوج، والسخط المعمم والتقريع الذاتى، تعبيراً عن رغبة قهرية بتدمير الذات أو قتل صورة عنها شديدة السلبية والبشاعة.

أما "التراجع الفكرى" ، على صعيد الشخصية الفردية كما النظريات التنويرية، فهو ظاهرة نلحظها فى محاكمة الفكر أو مراحل التطور الحضارى. فأنا أرى أن

محمد عبده ، على سبيل المثال، كان تراجعاً عن الموجة الفكرية التى أحدثها الأفغانى؛ وأن رشيد رضا مثل الظاهرة عينها نسبة إلى محمد عبده نفسه. . وأنّ صفوان، بحسب ما عاينت ثم استنتجت، هو الخطوة المتردية المتعثرة والإحجامية على سلم خطاب التحليل النفسى، وفى سيرورة الاستراتيچية العربية للتكيّف والإسهام فى وسط الدار العالمية للتكنولوچيا والفلسفة وثورات العلم.

٥ - اتفاق مع صفوان حول تشخيص الانجراحات النرجسية فى النَّحْن، وليس حول طرح العلاج :

لا أشك فى صحة تشخصيات صفوان للأوضاع غير الصلبة فى الوطن العربى (أمية ، تخلف ، سياسة، عُصابية. .) بيد أنى اختلف معه حول التفسير، ومن ثم حول الاستراتيجى والفلسفة أو التكييفانية والتغيرانية: أنا اختلف معه حول الحدّة . وأرفض السادية والتعميم، والجموح (را: القاضى الجامح) ونكران الواقع والتشفى. . بحسب تفسيراتى ، إن النَّحْناوية العربية تتعرض للكثير من التأثيم والتقطيع، وعمل القضاة، غير الاختصاصيين، فى محاكمتهم للفكر العربى والشخصية، يخرج عن الرفق والتعاطف عن المحبة والواقعانية. فى رأيى وعندياتى، إن الأنا الأعلى فى النّحنُ العربية لا ترى نفسها مسموعة الواعز أو نافذة القرارة. فالواجبات والمثل العالية ، كما نداءات التاريخ والعقل المستقبلانى ، ليست محترمة. ونرى العرب فى الواقع لاهين عن ذلك سادرين فى الرغبات غير اللائقة والجرى وراء الغريزى والنزوى؛ غارقين فى البيولوچى واللذائذ والمتع الحياتية ؛ وأعجز من أن يتصفوا بالقدرة على صون الذات، والسيطرة على المشكلات ، وبالشعور بالمنعة والاستقلال والاحتماء ، أو بالحرية والإنتاج والإسهام. لذلك تعُاقب الأنا الأعلى، فى جهاز النحن العربية، أو تقرع وتحقر. . وعلى ذلك تشعر الأنا العربية باللاقيمة، وانخفاض المكانة، وانجراح التقدير الذاتى، ونقض الاعتبار الذاتى مع مشاعر الذنب والتأثيم (قا: أعراض الاكتئاب، الوسواس القهرى).

٦ - الاختلالات فى "الذات العربية" بحسب صفوان :

سوء تشخيص للمنجرح فى اللغة والشخصية والفكر فى الأنا والمجال والنحن:

أنا لا أختلف إلا من حيث الحدة أو الدرجة ، مع تشخصيات م. صفوان لما هو نقص أو سوء فى التكيف، وفى اللياقة والعافية؛ ولا سيما فى كثرة الآليات (الأواليات، الميكانزمات) الريثية وغير المباشرة فى التفاعل مع المستجدات وحل الإشكالى والصراعى إنْ فى داخل الشخصية أم فى طرائق توفير التوازن المرن مع المجتمع والسوائية، ثم مع الدار العالمية للفكر وثورات العلوم. لا أنا ، كصديق لصفوان؛ ولا أى أحد آخر يحق له عدم الإصغاء إلى تحليلات صفوان الطبيبية، أو العيادية إن لم نقل التحليلنفسية والمتوقدة بخطاب الصحة النفسية. بيد أن لكل منا الحق، بل الواجب ، فى دعوته إلى إعادة التدقيق فى تلك التحليلات التى قد يقترب بعضها من النزعة إلى إنكار الواقع ، ومن عدم رغبة الطبيب اللاوعية بإشفاء اللاسوى واللامتكيف ، ومن القصور عن رؤية التطور والتاريخ وأثر التفاعل المستمر والحى مع العالمى.

ربما نكون قد وقعنا فى مبالغة، أو فى التحريضى، فى اللاواضح، واللفظانى. أنا لا أقصد إلا إلى تبيان أن الرؤية العلاجية عند صفوان ليست هادئة ؛ وأنها رؤية غير صافية قد تتكافأ تماماً مع شخصيته وأحكامه التى قد تبدو غير متوترة فى حين أن قيعانها معتمة وغير متمايزة أو ذات ظلال وإحباطات غير قليل، وقهريات متحكمة، ورغبات غير متحققة (را : الذهابيابية بين الشخصية والحقل، الوعى والسلوك، النظرى والتطبيقى أو الممارس) لكن ! أين هو ذلك اللاهدوء أو اللاصفاء الذى قلنا أعلاه إنه النسغ والحاكم المتحكم فى تحليلات العالم التحليلى، الرجل الدقيق والصارم، مصطفى الثانى (بعد مصطفى الأول : زيور) ؟ يُستطاع إعادة تحليل تحليلاته؛ ولعله أعاد التسمية والبنينة ، أو التعضية والتنظيم لبعضها . وقد لاحظت أنه يتراجع عن بعضها الآخر؛ وفى محادثات شفهية استنتجت أنى أرى فى صفوان

شخصية أخرى رقيقة لكن مقموعة مركونة. . . وعلى الرغم من هذه الاستنتاجات، وغيرها أيضاً، فأنا لا أتفق معه حول قولاته فى التحليل النفسى، وفرويد، ولاكان، واللاكانية؛ ثم حول قولاته التطبيقية ، ورأية السياسى، وغرقه فى خضم اللهجة العامية الضحل والضئيل. وها هو، أدناه وهنا، مَحْضر جلسات محاكمة محلل نفسى كبير حولناه ، ريثيا، إلى صابر، إلى مفحوص أو محلل.

٧ - انطباق التحليل النفسى على جماعات محدودة :

تردد صفوان ثم تراجعه :

الإنسان فى الفضاء الثقافى العربى، والإسلامى أو كثرةٍ من بلاد العالم القليلة القريبة من «الغرب»، لن يكون، قبل مضى زمن قادم مديد، صالحاً أو شبه صالح لاحتضان التحليل النفسى؛ وللعلاج بحسب طرائقه وخطاب "العلمى" (!) . ليست مرجعية صفوان، هنا، ثنائية الشرق والغرب؛ أو مقولات عنصرية، ومركزية أوروبية، وأناوحدية عند ثقافة أو عرق، منطقة أو دين، تاريخ أو وعى ولا وعى. . فمرجعيته عبارة عن إعجاب غير معتدل بالتحليل النفسى الفرويدى ، وعن تقدير مفرط مضخم لاسس ذلك المنهج أو لاعتبارها مفرطة المتانة ودقيقة صارمة، صالحة للتعميم وخالدة.

وبحسب تشخيصاتى وتجربتى، لقد فقد العالم كله الثقة بتلك الرؤية المنبهرة، ومن ثم القشورية ، إلى الفرويدية ورطانتها اللاكانية. والأهم هنا هو أن نفراً من علماء النفس العرب استسلموا إلى الفرويدية ، بغير وعى حيناً؛ وبرغبة تلميذانية قسرية، حيناً آخر. وليس ذلك الخضوع المرغوب، أو تلك التلميذانية الطفلية الاعتمادية، تعبيراً عن موقف ناضج ونمط من التفكير النقدانى المستقبلانى ، وبعد أن يفكر، أكثر وأعمق، لا يلبث صفوان أن يتردد؛ ثم كأنه يعود إلى الصواب فيقول: إن التحليل النفسى ينطبق على النخبة عندنا، وعلى سكان المدن؛ ويتابع فيقول بسداد ومنعة: « . . . وذاك ما ينطبق أيضاً وبالتمام على الناس فى الغرب، إذا لا ينطبق على الراعى، وقليل الثقافة ، وسائر من نلقاهم هناك» لا نمكث عند هذه الصفة

النخبوية للتحليل، والعلاج، بحسب الفرويدية البائدة؛ ثم المؤبَّدة فى اللاكانية ، عند بعض المنتفعين . ولا أمكث عند هذا التعريف الناقص للتحليل النفسى ومجالاته ، وقصره على معنى أو دور أحادى كان من الطبيعى أن يُخفق إخفاقاً ذريعاً وانفجارياً.

أنا أود أن نتوجه نحو ميدان آخر إضاءته وحدها ذات اقتدار على التنبه إلى أن بعضنا يسىء إلى الحقيقة بجهله أو طفليته، وإلى شخصيتنا التراثية أو ثقافتنا الأرومية والتاريخية برفضه للرؤية السوية وبعجزه عن معرفة الموقع أو النمط والواقع للحضارة والتاريخ. فى عبارة أقصر ، إن الغربى، والأمم الغربية التى قد يفنى بعضنا نفسه تعبداً لها وذوباناً فيها، لم يسبقنا لا من زمن بعيد، ولا بعمق، ولا من كل ناحية، ولا من حيث الطبيعة البشرية، ولا من حيث إمكان التفاعل مع المحيط. يظن البعض ، من المحللين النفسيين وجماعة من الكاتبين، إن تصوراتنا عن النفسى والإيمانى، عن الفكر والفلسفة ، أو عن النفس والمادة والروح ، عن الحياة والوجود والقانون، هى تصورات وظواهر مختلفة عنها عند الغربى، أو أنها ملتبسة ، غير متمايزة، "بدائية" (!)؛ وهكذا هكذا . . مؤسف أن يتكلم عن النفس فى الفلسفة العربية الإسلامية، وعند الفقهاء والمفكرين الآخرين، مَنْ لم يقرأ أكثر من العناوين وما تحتها، أو من لم يفهم أكثر من تلخيصات وآرائية شفهية عن الفكر العربى والفلسفة.

٨ - محصورية الجنسى ضمن سجن المحظور ثم المحرم :

فى تلخيصه لتقريظى للدكتور صفوان، يرى د. عدنان حبّ الله أنّ العامل الجنسى فى المجتمعات العربية يعوق تطبيق التحليل النفسى، ويمنع فعاليته ومردوديته. ذلك أننا بحسب الزميل حب الله، "ما نزال نخجل ونقاوم معالجة الاضطرابات الناجمة عن هذه الوظيفة الأساسية، ونحاول بشتى الوسائل التعتيم عليها حتى فى التعليم الابتدائى ؟ هنا رأى وهو قديم، ومتثائب، ومعرفة متناقلة شعبية، والأهم هو : هل نظرية فرويد فى الجنس سديدة؟ هو مبتلع نظريات ، ولم يكن المبتدع.

٩ - العربية تفتقد أفهومات هى بمثابة أدوات إنتاجية أو أجهزة ضرورية للتفكير والمنطق والتحليل :

أ - اللغة العربية مصابة بضعف فى الاقتدار على أن تكون صالحة من أجل التعبير عن ذاتها، وتوكيد اعتبارها الذاتى. . ففى مجال التحليل النفسى، وفى تحليل الفكر المحض وارتياد الواقعات، لا تمتلك تلك اللغة، فى تشخصيات صفوان وآرائيته (مجموع آرائه المتفرقة اللامتعضية) ، مفردات أساسية لابدية هى القوالب والأجهزة أو القوام والركائز فى التحليل النفسى. من تلك المفردات التى يقول صفوان إنها غير موجودة : أنا (الضمير المتكلم) تاء المتكلم، التعيّن ، الحَصَر، التحليل.

ب- يتغاذى هذا التوصيف للغة العربية، عند صفوان ، مع قوله فى نقص إقتدارها على استيعاب أو اجتياق غير مصطنع للكلمات المعتمدة كمرادفات للمفرادات التقنية النفسية الأساسية فى خطاب التحليلنفس، وفى كلام أخصر ، هنا تعجز اللغة العربية، ثم الفكر أو العقل العربى، عن ترجمة أمينة أولاً، بل ودقيقة للمصطلحات التحليلنفسية.

بيد أن صفوان، فى محاكمته لفعل الترجمة إلى العربية، يُثنى حتى المبالغة على طاقة هذه اللغة على أن تقدِّم نصاً مترجماً قد يعلو على النص الأصلى نفسه. هنا يذكر صفوان أمثلة[1]. ولا أظن أنه يضع ترجمته الشخصية لكتاب فرويد ، تفسير الأحلام، دون مستوى الأسلوب الأدبى الراقى الذى كتب به فرويد نفسه ذلك الكتاب بالألمانية، فصفوان هو الذى ، فى صدد آخر يقول:« أود أن أوكد عدم مغالاة أن جميع الترجمات العربية التى أشرف عليها الدكتور زيَور لا تقلّ فى دقّتها وطلاوتها عن أحسن الترجمات الموجودة فى اللغات الأخرى» .

(١) ترجمة فخرى أبو السعود لكتاب توماس هاردى كانت الترجمة الوحيدة (التى فازت على الأصل) ويذكر هنا صفوان أن محمد مصطفى بدوى (أستاذ فى أكسفورد) قد أيده فى ذلك القول. وحماس صفوان شاسع واسع للعربية؛ ولقدرتها على الترجمة والتأدية الممتازة لأى لغة أجنبية.

١٠ - اللهجة العاميّة نافعة مع آلف وألف «لكن».

علاج جزئى رَيْثى وعطوب لأنه غير متأسس على معاينة شمولانية للاجْراح :

لعل صفوان لترجمة (عطيل) إلى العامية المصرية يحقّق عنده رغبة بسد نقص، ويكشف عن رغبة بالشفاء من توتر أو بخفض قلّق . أنا لا أحاور هنا وثائق صفوان، أو مرجعيته وأدلته. فأنا أهتم أكثر، وعلى نحو خاص، بأساليبه فى الحلّ وتحقيق العلاج أو ، فى كلمة أخصر، بمنهجيته، أو فى مجال إعادة حسن الأداء ثم التكيّف الناجح فى اللغة العربية.

وأنا، هنا، من جهة أخرى، لا أسرد أدّلة المحارِبين للعاميّة ، ولا ينفعنى تدبر مسبقائهم وتوقعاتهم . فمخاوفهم ومحاذيرهم قد لا تقف منيعة فى وجه أيديولوچية صفوان. إذْ من خطاب التحليلنفس، ومن مقومات الصحة النفسية ، أن لا نتهم أو نأسف؛ وأن لا ندفع صاحب الرأى المخالف لنا إلى مشاعر بالذنب ، أو التقصير، أو التحرك بقوانين الفكر الأقلى المتعصب ضد الأكثرية أو السلطة بل وضد استراتيجيا الفكر الباحث عن الفوز أو مشاعر الانتصار.

لعل الأهم هو الانتقال من الذرائع، أو الأدلة الواضحة العلنية ، التاريخية والمصرَّحة، إلى الدوافع اللاواعية ، والأفكار القهرية، والإيمانيات أو المسبقات الجاهزة المطمورة وغير المتمايزة. والحالُ هذا، فإننا ننتقل من الخطاب الواعى عند صفوان إلى البنى التحتية ، والدوافع الذاتية الكامنة التى تقود نظامه فى التفكير (دا:النسق المعرفى). ومعنى ذلك الانزياح هو أن نتساءل : أين هى، ثم ما هى، العوامل الشخصية فى نظرية صفوان؟ ينفعنا جداً هنا كشف عقله الإيديولوجى. وإيمانياته المتحكمة فى منطقه المعرفى، وفى محاكمته للأنساق المعرفية وللقول اللغوى الشفهى. ولا أظن أنّ التحليل النفسى الذى يعطى للطفولة والمعيوشة والشفهيات قيمة أولى فى الحياة هو الذى قاد صفوان إلى اعتبار اللغة المحكية قيمة أولى فى تعيين اللاوعى، وفى التحكم بالسلوكات والوعى والعلائقية ثم فى الشخصية والوجود والفكر.

١١ - النظرة الثانية أو التدقيق المُعاد .

صفوان يقتل الأب (الفصحى) ويحمى الأبناء القتلة (العاميات).

أو الية حل المشكلة أو تجاوز المانع والإحباط - عند صفوان - سلبية وانفعالية (تكسيرية ، صدامية):

اعتمد صفوان، على غرار ما يفعله الطبيب الجراح (الذى غالباً ما يكون شخصية من نوع ما ، كالجزار) ، العامية المحلية بديلاً من الفصحى لتأدية وظائف اللغة: الإبلاغ والتلقى، تكوين الوعى واللاوعى، نقلُ الاعتقاد والتفكير والخبرة، صقل وضبط قوالب التفكير أو عادات العقل فى الإنتاج والمحاكمة والتفضيل ، توكيد الذات ، تعضية المجال والزمكان وأواليات التكيّف ، حَمّلُ ونَقَل النظر إلى الوجود والقيمة والتواصلية.

وأنا أرى، بحسب تفحصى ، أن هذا الانتقال قد يكون نقلاً من الرسمى إلى الشعبى، ومن "النخبوى" أو الواضح والعالم إلى المعيوش، والمطرود المقلق معاً والمشاغب، أو من الأب الطاغى لكن الحامى والضام أو اللام إلى الأبناء المتمردين المطالبين بحق الاستقلال والتحرر، بالفوضى المحبوبة عندهم وبالتشتت والتفرق والتنوع. بيد أنى، بعد هذا التشخيص للحالة، قد لا أرى أن استيعاب الصراعى أو التجاذبى واللامتكيف لا يكون إلا بقتل الأب ، وعدم ترشيد الأولاد القاصرين ولربما العاجزين عن تحمل المسئولية حيال الغد والنحن واللغة.. فى أوالية اجتياز العقبات فى شخصية أو فكر أو سلوك صفوان، تحين للعقبة ؛ وأنا أرى أن ذلك التحطيم لا يحقق التكيف الإيجابى والاتزانية أو النضج والسوائية بقدر ما هو يرتد على الذاتى فيغدو تدميراً ذاتياً ثم عنفاً قاتلاً أو تقطيعياً للمجال والعلائقية والنّحناوية.

وأنا قد لا أقول إن اعتماد العاميات يُعدّ تراجعاً إلى الطفلى والمطبق، المغبون والحى. غير أنى أقول إن ذلك الحل للإحباط لا يرقى إلى مستوى الحلول المباشرة والعقلانية، الواقعانية والشمولانية، الدائمة والمتناقحة والجذرانية. إنه حل يقع خارج

موقعه، وخارج الفلسفة الاجتماعية والسياسية (والأخلاقية) ، وخارج الرشدانية التى يرسمها المجتمع لتوكيد ذاته. أخيراً لقد التقطنا أواليات غير مباشرة كثيرة فى نقد صفوان للفصحى، ولحملة فكرها ورؤيتها للوجود؛ وفى ذلك كان الناقد، وإذ هو يُنتج ويتحرك تبعاً للأساليب الحيلية الناقصة، الالتفافية والسلبية، لا يوضح أو يصقل نظرية أو مقولات جديدة أو مطورة وإسهامية وقادرة على التفسير كما التغيير. ولعله كان من الأجدى أن يَطرح صاحب التشخيص والعلاج - أمام الجميع - منطقه فى العمل ، وأجهزة التفكير المعتمدة والمذهب أو الهيكل بل الدرع النظرى فى محاكمة العائلة الرمزية الجماعية (التراث ، أى الأب والأم والأبناء).

١٢ - التلاقى بين صفوان فى تعصبه للعامية والمتعصب للأقلية أو للحوادث الفرعية فى المجتمع وفى الفكر.

قوانين تحكم الأقليات وتفسر التعصب عند الأقلية لغوياً وغير لغوى: الأواليات الحيلية أو الدفاعية للتكيف والتوكيد الذاتى عند الأقليات وفى منطق الأيديولوچيات واللاهوائيات :

قد لا يشعر ابن الاقليات، الأقوامية كما اللغوية أو الدينية، بالاحتماء والاطمئنان فى فضاء الأكثرية. فذلك الابن يفتقد إلى الحنان، ويشعر بالحرمان العاطفى؛ إذ هو يعيش، بحسب تصوراته، ضمن عائلة مفككة ، وفى كنف أم بديلة، وفى حقل غير متوازن العلاقات بين الأب والأم، وبين الأخوة أنفسهم، أو فيما بين الوحدات الفرعية. ويشعر، بعد أيضاً ، بحسد الأخ الأكبر، وأيضاً بالغيرة من موقع أو سلطة هذا الأخ الكبير المتسلط المحتكر.

(. . .) وأيديولوجيا اللغة العامية ملجأ وهمى ، أو فعلى. وذاك الحل هو تعويض، وتغطية وهروب، وانفصال ، وانسحاب ، وإبدال، ونكران للواقع، وتكوين عكسى، وحل يائس جانح، غير ناضج ، انتحارى وناحر (را: حلّ الدجاجة لمشكلة الجوع) والتعصّب لتلك الإيديولوچيا اللغوية العامية هو نفسه التعصب المعروف فى الأيديولوچيات بعامة، وعند الأقليات ، وفى القوميات .

أخيراً، وعلى سبيل الخلاصة، إن ما يقال عن الرغبة، عند البعض ، بالعامية معروف وكثير، تجريحى واتهامى ، تأنيبى وتأثيمى، دفاعى وتقريظى. لا سبيل إلى تكراره، ولا اقتدار لنا على ذلك بسبب أنه، عند نهاية التحليل، يؤدى إلى السياسى. لذا، فإن الأهم لنا هو، هنا والآن، أن لا نقع فى حل يقول بالحتمية اللغوية، وباعتبار اللغة عاملاً حاسماً مفسِّراً لكل شىء، ولكل شىء فى كل شىء، ولكل معنى فى كل معنى لا تؤخذ العامية من دون الفصحى؛ ولا ضد ذلك سليم. هما معاً: فى بنية ، فى وحدة، فى كل أجمعى وجميعى. وتلك الثنائية صراعية، وجدانية، تمزيقية للوعى، خاضعة لقوانين حل المتكافئات أو المتناقضات المتساوية . . ومرة أخرى، إن حلول صفوان مترددة، متوقدة بالمشاعر (منها التأنيب الذاتى) ، مأزومة ومتمأزقة ، ومكشاف لعدائية منزاحة ومكبوتة. قد تكون نواياه سوية لكن طيب القلب والسذاجة قد يؤديان ، بغير تعمد، إلى اللاأخلاقى والفاشل، وإلى الطريق التى لا تصد ولا ترد، أى التى لا تمنع السائر عن المتابعة، ولا ترده إلى دياره.

١٣- مقولة أن فعل «كان» نقص آخر أو فجوة ومأساة فى اللغة.

تعبير الجملة الأسمية لا يحتاج للرابطة المنطقية ويستوعبها.

فلسفة عربية انطلاقاً من فعل الكينونة أو الكائن وفعل الموجودية.

أصالة فلسفة «كان» (الفلسفة الكانوية) وفلسفة الكائن فى الفكر العربى.

تمر فى «تقريرات» صفوان الطبية ، وطروحاته الأشفائية، فكرة أخرى هى أيضاً، كسابقاتها، صراعية أو مزدوجة القيمة. فقد شخّص رضة مفادها أن فعل «كان» - فعل الكائنية والكينونة والكيّنة - فعل غير دقيق وغير نافع فى اللغة العربية. وأنا أقول إنه موجود؛ وقال أصحاب المعاجم القديمة : إنه فعل كان موجوداً، ثم أُميت وبعضهم قال إنّه أُسقط . ويبنى صفوان على تقريره القطعى ، وبغير الانفتاح الناقص أو المفقود.

من المترتبات الناجمات عن ذلك، افترض الكثيرون أن الفكر العربى ليس قادراً على الإنتاج فى المنطق، أو أنه غير صالح للتعبير عن المنطق، ولاستيعاب النظر الفلسفى وتمثله . . وأوصلتنا الافتراضات، القائمة على ذلك التصوّر للعربية، إلى مقولات وأظنونات؛ من نحو : العربى لا يستطيع فهم أو صياغة النظرية الغربية أو المسيحية فى الأونطولوجيا (الأيّسيات ، الإنيات أو الإنيات ، علم الوجود، الوجوديات ، علم الكائن، الكائنيات، إلخ . .).

فى محادثاتى مع صفوان، فى الفصل الماضى من هذا العام، بدا له تردده ، بل وحتى تراجعه أحياناً وهذا، إن لم أقل إنه القى المسئولية على عاتق آخرين. وأثناء جلسة نقاش عام، فى قسم علم النفس (الفرع الأول)، وجه إلى الزميلين وليد خورى وكمال بكداش دعوةً للرد على موقف صفوان من فعل الكينونة فى العربية. لقد أنكرا على الصمت الاستنكارى والمُحابى.

كان ردى أنّ تلك قضية صارت عتيقة، مَرْميّة . وأننا فى قسم الفلسفة، ومنذ السبعينيات ، تجاوزناها. وفعلنا ذلك فى الجامعة اليسوعية؛ هى نفسها. وأسكتنا الخطاب غير تاريخى فى دراسة اللغة. وقلت ، سريعاً وبغير نفور أو استياء ، وإننا قد عدنا إلى استعمال كلمة الليس بمعنى العدم، والأيس (الأيسيات) بمعنى الوجود (الأونطولوجيا) واستطعنا شقلبة المعادلة؛ فنحن اليوم نستطيع تأكيد أن اللغة التى تحوى جملةً أسمية أقدر على التعبير والتوضيح والتلقى، وأقدر فى مجال المنطق الحديث، وفى المعادلات، وفى . . ، وفى . . والأمر ليس سراً ، أو مجهولاً، إن عدنا لنقول : إن فلسفة الكائن ، أو فلسفة الوجود، والمقال فى الوجود، مستقاة من أثلوث الخطاب اليونانى العربى اللاتينى ومعنى الفعل وجد مزدوج: إنه كما تريدون أن يكون، أى هو قد يعنى اللقيا (وجدت شيئاً : لقيته) لكنه يعنى أيضاً معنى الوجودية ، والكينونية، والخلق (أوجد الله الكائنات : خلقها؛ جعلها موجودة). ربما كان يصدق اعتبارهم، هم «أهل العاميات» ، أن فعل كان لا يستطيع أن يكون معبراً عن جملة شكسبير: "نكون أو لا نكون تلك هى المشكلة" لكن وبعد تطور معنى كلمة كان ومشتقاتها، لا يجوز التنكر لمقولة أن اللفظة تعيش وتنمو فهى

تنغرس فى المجتمع والتاريخ . وقلت لصفوان ما سبق أن كررته مراراً: إن فعل كان إن اختفى فى الزمن الحاضر، فهو يعود للفاعلية والظهور فى الزمن المضارع (المستقبل والراهن) فنحن نقول : قد يكون الأمر خطيراً، سوف يكون للفعل أكثر من معنى أو مستوى، كنت صديقاً لصفوان، وأنا لن أكون له خصماً. . كان الله ولم تكن الأشياء . . كان التحليلنفس إبهارياً. . كُنْ مع الحقيقة ولا تبالى. إذا قال الله لشىء كُنْ فيكون. مصطفى يكون ومصطفى لا يكون (زيور ثم صفوان) كان الله منذ الأزل. كن ابن من شئت واكتسب أدباً . . يكفيك فخراً أن تكون. .

١٣- نقد المجتمع والسياسة بحسب التحليل النفسى عند صفوان :

نجح العاملون فى ميدان التحليل النفسى، وعلم النفس الاجتماعى العيادى، فى اختراق طبقات مترازحة ، أو رزيحات ثقافية متراكمة فوق بعضها البعض. . ولعل ذلك النجاح فى هتك ذلك حقق فى مجتمعاتنا نقداً دقيقاً للعصمنة والأسطرة للمأسية والقدسنة، للمنمطات واللاوعى الثقافى . . وقد قدم صفوان حصة فى ذلك العمل النقدى؛ وتبقى جزيلة الدقة والمردودية تحليلاته للخطاب السياسى العربى. هنا أنا أثنى وأُثنى على تشخيصه للبارانويائى، للهذائى وهوس العظمة، فى ذلك الخطاب الذى ، بحسب تسميتى ، يبدو عصابياً فى مختلف وجوهه. إنه فى تحليلاتى، مهووس بالاختلاقى؛ وهو نفاجى، زورى ، استنفاخى، مجانب للعقل بل ومن ميدان هو اللاعقل، وضد العقل . . (را : زيعور ، قطاع البطولة والنرجسية فى الذات العربية؛ علم البطولة الشعبية والسياسة والروحية فى النحناوية العربية).

قد ينفعنا المكث لحظة كى نتدبر نقطة، أو اثنتين، عند صفوان فى توصيفاته لنشاط المعلم مصطفى زيور. فقد نكتشف صفوان من خلال تفضيلاته، ذاك أن أعجاب الشخصية بهذه القيم أو تلك يكشف عن نمط الحياة والتفكير عندها.

١٤- الالتزام بالوطن، المعرفة من الداخل بأمراضه الفكرية وانجراحاته. المقاومة اللاواعية للتغير الشمولانى:

يكتب مصطفى صفوان فى كلمة بعنوان مصطفى زيور - المعلم : "وإنى لاحيى فيه الآن مثالاً منقطع النظير للوفاء للوطن» . وهذا لسان حالى، إنه لسان نفسى ثم أنا أزيد، فأقول: هذا كلام يكون دقيقاً بقدر ما يكون كلاماً ناجحاً فى التعبير عن الوعى والسلوك، عن الكينونة والنحن، عن الانقهارات والقسريات فى المجتمع والفكر. كان زيور قد توحّد (تماهى ، تعين) فى الوطن وفى اللغة. ورأى أن اللغة تكون المسكن والذات ، الأم والتراث، اللاوعى والرضات والصدمات، الرغبة بالشفاء وحاجة الإنسان للاحتماء والتوكيد الذاتى والإنجاز . أما صفوان فهو، وبحسب عندياتى القديمة والجديدة، لم يتغلب على ما هو عنده رغبة لا واعية، أو ضبابية وغير متمايزة، بتطور الوطن، وتغير السلوك والوعى داخل المجتمع العربى.

١٥- صمد زيور وحده . وهرب من العواصف صفوان وبقية التلاميذ:

يقول صفوان :« ولكن العواصف التى اجتاحت بلدنا بما ترتب عليها من القطيعة بيننا وبين كل نتاج فكرى يُعتد به فى الخارج فاقت احتمالنا جميعاً (يقصد: تلاميذ زيور) . إلا أن الدكتور مصطفى زيور: فقد صمد وحده لها . . وقال أيضاً تلامذة الدكتور زيور «لو مكثوا بأرض الوطن لتكونت منهم مدرسة لا تقل خصوبة وابتكاراً عن مثيلاتها فى أى بلد آخر» .

انتهى صفوان غريقاً فى حضارة الأقوى. ذاب فيها، تعين أو تماهى معها. قتل نفسه فيها، قتلاً رحيماً ، وبالتذاذ سادى يعرفه الانتحار الفكرى وحده. لقد حصل على تكيف غير جذرى، سيء .